الفصل السابع عشر

الأستاذ الراحل الدكتور السيد محمد خيرى..
وثلث قرن فى خدمة علم النفس(*)
« ترحم فى ذكرى»

(*) الكلمة التي ألقاها المؤلف في المؤتمر الثاني لعلم النفس في مصر، والذي عقد بالقاهرة في إبريل من عام ١٩٨٦.

لقد شرفتنى الهيئة المنظمة للمؤتمر مشكورة بتكليفى أن ألقى كلمة عن الإسهامات العلمية لأستاذنا الرائد الدكتور السيد محمد خيرى الذى تصادف رحيله عنا فى مثل هذه الأيام من العام الأسبق (١٩٨٤)؛ وكان آنذاك أستاذًا لعلم النفس بجامعة الرياض بالمملكة العربية السعودية يواصل رسالته فى نشر العلم الذى تخصص فيه ووهبه جل حياته. وكان قد ترك العمل أستاذًا لعلم النفس وعميد لكلية الآداب بجامعة عين شمس قبل ذاك بحوالى اثنى عشر عاما إلى الجامعة السعودية.

حصل أستاذنا الراحل على دبلوم معهد التربية الابتدائى عام ١٩٣٦، وبكالوريوس فى علم النفس مع مرتبة الشرف من جامعة لندن عام ١٩٥٠ ودكتوراه الفلسفة فى علم النفس من جامعة لندن أيضًا عام ١٩٥٢، وبعدها عاد إلى مصر مدرسًا لعلم النفس بقسم الدراسات النفسية والاجتماعية بكلية الآداب بجامعة عين شمس، ثم رقى أستاذًا مساعدًا لعلم النفس فى عام ١٩٦١. وفى ٢٦ مارس من عام ١٩٦٨ رقى أستاذاً. وفى أول أكتوبر من نفس العام عين رئيساً للقسم. وفى نفس اليوم عين أيضًا عميدًا للكلية لمدة عامين. ثم جددت عمادته لمدة عامين آخرين فى أول أكتوبر عام ١٩٧٠. وقبل انتهاء مدة عمادته الثانية بأسابيع قليلة أعير لجامعة الرياض التى ظل بها حتى رحل عن دنيانا مع غفران الله ورحمته.

واسمحوا لى أن أنتقل إلى الحديث عن الحياة العلمية لأستاذنا الراحل:

أعد الدكتور السيد محمد خيرى رسالته للدكتوراه وقدمها عام ١٩٥٢ لجامعة لندن وكانت عن مستويات العمليات العقلية المعرفية. وقد استخدم فى إعدادها عشرين اختبارًا نفسيا طبقها على صبية ثم قام بتحليل عاملى انتهى منه إلى أن العمليات العقلية المعرفية تندرج فى مستويات من الأبسط إلى الأعقد، مبتدئة بالعمليات الحسية فالعمليات الإدراكية فالعمليات الارتباطية فالعمليات العلاقية ومنتهية بالذكاء العام.

ولقد كان لهذا البحث صدى كبير فى الأوساط العلمية حيث نشر بمجلة علم النفس البريطانية فى نفس العام، كما لخص بفرنسا فى مجلة L'Annee psychologique فى العام التالى (١٩٥٣)، كما عقد القسم النفسى فى أكاديمية نيويورك للعلوم مؤتمرًا عام ١٩٥٣ ناقش فيه البحث ونشرت المناقشة فى مجلة الأكاديمية بنفس العام أيضا. وفى عام ١٩٥٤ نشر الكتاب السنوى لعلم النفس، والذى أشرف عليه أستاذنا المرحوم الدكتور يوسف مراد مقالاً عن البحث بقلم صاحبه (وقد نشرت دار المعارف بالقاهرة هذا الكتاب السنوى).

وبعد حصول أستاذنا الراحل على درجة الدكتوراه من جامعة لندن عاد إلى مصر ليعمل مع زملائه رواد علم النفس بكلية الآداب فى جامعة عين شمس تحت إشراف رائدهم وأستاذهم الدكتور مصطفى زيور- أمد الله لنا فى أجله ومتعه بالصحة والعافية.

وكان قسم الدراسات النفسية والاجتماعية بهذه الكلية فى ذاك الوقت هو القسم الوحيد فى كليات الآداب الذى يتخرج منه متخصصون فى علم النفس على مستوى الليسانس، وظل كذلك لفترة طويلة امتدت إلى أواخر الستينيات.

ولقد عهد إلى الدكتور خيرى بتدريس الاحصاء وعلم النفس التجريبى وعلم النفس الصناعى والفروق الفردية. كما أشرف على تكوين معمل علم النفس بالكلية وجلب وصناعة أجهزته الأساسية، والتى لازال يوجد منها الشىء الكثير حتى الآن.

وكان من حسن حظ قسم الدراسات النفسية والاجتماعية بآداب عين شمس فى ذاك الوقت أن اختص أستاذنا الراحل بتدريس الاحصاء لطلبته فقد كان رحمه الله يتمتع بموهبة كبيرة فى التدريس والشرح مما مكنه من أن يحيل مادة جافة بالنسبة لطلبة الآداب تتعامل بالأرقام الجامدة إلى مادة طيعة الفهم، سلسة المتابعة، شيقة الدراسة، مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالبحث النفسى والتربوى والاجتماعى. وعلى كثرة طلبته الذين كانوا يحضرون محاضراته فى الاحصاء ويبلغون أحيانًا المئات الأربع كان معظمهم يفهم درس المحاضرة رغم ماهو معروف عن مادة الأرقام من صعوبة وعسر. لقد فهم مادته فاستطاع - بلغة علم النفس - أن ينقل هذا الفهم إلى تلاميذه، وقديمًا قالوا: إذا فهمت أفهمت. كما أنه أحب مادته واستمتع بها فاستطاع - بلغة علم النفس أيضًا - أن يجعل تلاميذه يشاركونه وجدانيا حب المادة والاستمتاع بها. وقد جاء كتابه «الإحصاء فى البحوث النفسية والتربوية والاجتماعية» شاهدا على ذلك. ولايزال هذا الكتاب الذى ظهر فى أواسط الخمسينيات يعد مرجعًا هاما حتى اليوم للمشتغلين بالبحوث النفسية والتربوية والاجتماعية. وقل أن نجد رسالة ماجستير أو دكتوراه فى علم من هذه العلوم الثلاثة لجأت إلى المعالجات الإحصائية لبياناتها إلا كان هذا الكتاب مرشدًا أساسيا لها.

هذا، وقد تعددت أوجه النشاط العلمى الذى قام به أستاذنا الراحل ولعل من أهمها وأسبقها استعانة ديوان الموظفين به فى تصميم وتقنين مجموعة من الاختبارات النفسية وإجرائها مع المقابلات الشخصية للذين كانوا يتقدمون للعمل فى الوظائف الحكومية منذ إنشاء ديوان الموظفين فى أواسط الخمسينيات.

وفى أواسط الخمسينيات أيضا أنشئت وزارة الصناعة وبها إدارة للكفاية الانتاجية والتدريب المهنى، وكان بهذه الادارة قسم خاص للاختبارات النفسية تولى أستاذنا الراحل الاشراف عليه منذ إنشائه، وحتى إعارته إلى المملكة العربية السعودية. وقد كان يشرف فيه على إعداد وتقنين بطاريات

الاختبارات النفسية وتطبيقها على طالبى الالتحاق بمراكز التدريب المهنى التابعة للوزارة والمنتشرة فى أنحاء مصر، وهى مراكز للتدريب تعمل وفق نظام التلمذة الصناعية وتقبل الحاصلين على شهادة الإعدادية العامة بشروط معينة كان منها النجاح فى الاختبارات النفسية التى تعقدها الوزارة. وكانت تتقدم إليها أعداد ضخمة من حملة الاعدادية تعدت فى كثير من السنوات العشرة آلاف طالب. ولقد كان من نتيجة ذلك أن خرج إلى الوجود تحت إشرافه ثلاث بطاريات للاختيار السيكولوجى لتلاميذ مراكز التدريب المهنى مكتملة الإعداد والتقنين وهى:

بطارية حرف المعادن:

وتتكون من اختبارات: الاستدلال اللفظى، والذكاء الاعدادى، والاستدلال الميكانيكى، والمعلومات الميكانيكية، والعمليات الحسابية، والتصور المكانى، وتكميل الاشكال، وتذكر الأشكال، والتجميع الميكانيكى ومهارة الأصابع، وثبات اليد.

بطارية حرف الجلود:

وتتكون من اختبارات: الاستدلال اللفظى، والعمليات الحسابية، والتفكير الحسابى، والمثابرة العضلية، وقوة قبضة اليد.

بطارية حرف الزجاج:

وتتكون من اختبارات: الاستدلال اللفظى، والعمليات الحسابية، والتفكير الحسابى، والرسم على النموذج، وتقدير الأطوال، وثنى السلك، وثبات اليد، ومهارة الأصابع.

ومع أن بعض الاختبارات كان مكررا فى البطاريات الثلاث إلا أن تنوعها وكثرتها يشيران إلى مدى الجهد الذى بذل فى تصميمها واعدادها وتقنينها. هذا، ولازال تلاميذ أستاذنا الراحل فى القسم النفسى بمصلحة الكفاية الانتاجية

فى وزارة الصناعة يواصلون هذا النشاط العلمى فى تقنين الاختبارات النفسية وتطبيقها على المتقدمين لهذه المراكز التدريبية.

وفى الخمسينيات أيضا أنشئ المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، وفى عام ١٩٥٧ بدأ العمل فى أهم وأضخم بحوث المركز فى ذاك الوقت وهو بحث «تعاطى الحشيش» وكانت الهيئة العلمية التى عهد إليها بوضع خطة البحث وتنفيذه تحت إشراف أستاذنا الدكتور مصطفى زيور، وكان الرجل الثانى فى هذه الهيئة ونائب مشرفها هو أستاذنا الراحل الدكتور السيد محمد خيرى. وكان جهده واضحًا فى هذه الهيئة العلمية للبحث سواء فى التخطيط له أو الإشراف على تدريب الاخصائيين الميدانيين أو وضع خطة التحليل الاحصائى لبيانات البحث. ولقد أصدر المركز القومى للبحوث تقريرين كبيرين عن هذا البحث: التقرير الأول فى عام ١٩٦٠ ونشرته دار المعارف فى ٤٢٥ صفحة، والتقرير الثانى فى عام ١٩٦٤ ونشرته دار مطابع الشعب فى ٣٣٨ صفحة، وذلك بخلاف التقارير الفرعية الأخرى.

وفى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية أيضاً أشرف أستاذنا الراحل بالاشتراك مع المرحوم الأستاذ أحمد زكى محمد على الهيئة العلمية لبحث «قياس وتشخيص الروح المعنوية لدى العمال الصناعيين» وقام فى الإشراف بالدور الرئيسى، كما قام بكتابة تقرير البحث الذى أصدره المركز القومى عام ١٩٧٢، وطبعته الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية فى ٣٣٠ صفحة. ويعتبر هذا البحث رائدًا فى مجاله فى العالم العربى علاوة على ما لموضوعه من أهمية تطبيقية قصوى فى قضايا التنمية والإنتاج.

وفى عام ١٩٧١ عقد مؤتمر علم النفس بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، وشارك فيه جمع كبير من باحثى علم النفس ومتخصصيه من الهيئات العلمية والجهات المهنية المختلفة فى مصر. وقسم المؤتمر إلى ثلاث لجان، حيث كانت «لجنة علم النفس والانتاج» وهى اللجنة الأولى بالاضافة إلى لجنتى

«علم النفس والتربية» و «علم النفس والتغير الاجتماعى». وكان المؤتمر كله تحت رئاسة أستاذنا الدكتور أحمد زكى صالح، رحمه الله، بينما كانت لجنة «علم النفس والانتاج» تحت إشراف أستاذنا الراحل الدكتور السيد محمد خيرى، وقد بذل فيها جهدًا كبيراً سواء فى الاعداد لها أم تنظيمها أم مراجعة بحوثها أم رئاسة جلساتها ومناقشاتها.

هذا، وقد تعدد الانتاج العلمى لأستاذنا الراحل فى فروع علم النفس المختلفة بين التأليف وبين الترجمة أو الاشراف عليها ومراجعتها. فبالإضافة إلى كتابه الأساسى فى الاحصاء والذى سبق أن أشرنا اليه ونشرته دار الفكر العربى بالقاهرة فى عام ١٩٥٦ فى ستمائة صفحة، نشر عام ١٩٦٧ كتابه عن «علم النفس الصناعى وتطبيقاته المحلية»، وقد نشرته دار النهضة العربية بالقاهرة فى ٥٢٣ صفحة. ولقد نال عنه جائزة الدولة التشجيعية فى العام التالى، وهو كتاب تميز الى جانب عرضه للموضوعات الاساسية فى علم النفس الصناعى بتضمنه لخبرة استاذنا الراحل الشخصية فى هذا المجال وبحوثه الميدانية فى مصر بالاضافة الى خبرة تلاميذه وبحوثهم أيضًا، مما جعله يمتاز بالأصالة والقيمة. ولازال حتى الآن يعتبر مرجعا هاما للباحث فى مجال علم النفس الصناعى والتنظيمى.

وفى أواسط الخمسينيات اشترك أستاذنا الراحل تحت إشراف أستاذنا المرحوم الدكتور يوسف مراد فى ترجمة كتاب «ميادين علم النفس» الذى أشرف على تأليفه جليلفورد ونشرت دار المعارف بالقاهرة مجلده الأول عام ١٩٥٥ ثم مجلده الثانى فى العام التالى. وكان من نصيب أستاذنا الراحل الدكتور السيد محمد خيرى ترجمة عدة فصول من المجلدين، خاصة ماتعلق بعلم نفس الطفل وعلم النفس التربوى وعلم النفس المهنى. ولقد اكتسب هذا الكتاب شهرة واسعة لأنه عرض المبادئ والمعلومات الأساسية لغالبية فروع علم النفس وموضوعاته الرئيسية آنذاك. كما اشترك فى نفس الفترة تقريبًا فى ترجمة بعض كتيبات «علم النفس للآباء والمدرسين» تحت إشراف

أستاذنا الدكتور عبد العزيز القوصى، مثل كتيب «المشاكل الانفعالية للنمو» تأليف انجلش وفنسن، وكتيب «المشكلات الانفعالية للمرض» تأليف جوسلين. وكانت هذه الكتيبات تصدر فى مصر بالتعاون مع مؤسسة فرانكين للطباعة والنشر كسلسلة دراسات سيكولوجية مترجمة تهتم بدراسة نفسية الاطفال وتربيتهم. كما شارك أستاذنا الراحل بعض تلاميذه فى ترجمة كتاب «رعاية الطفل وتطور الحب» تأليف جون بولبى ونشرته دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٥٩ وترجمة كتاب «علم النفس الاجتماعى فى الصناعة» تأليف براون ونشرته دار المعارف فى عام ١٩٦٠.

وفى مجال الترجمة أيضا قام رحمه الله بمراجعة ترجمات لبعض الكتب أو أشرف عليها أو اشترك فى ذلك مثل كتاب «سيكولوجية الفروق بين الأفراد والجماعات» الذى ألفته اناستازى وفولى ونشرت ترجمته الشركة العربية للطباعة والنشر بالقاهرة عام ١٩٥٩، وكتاب «علم نفس الشواذ» الذى ألفه كوفيل وزملاؤه ونشرت ترجمته دار النهضة العربية بالقاهرة عام ١٩٦٧، وكتاب «علم النفس فى مائة عام» الذى ألفه فلوجل ونشرت ترجمته العربية دار الطليعة ببيروت عام ١٩٧٣.

وعلاوة على كل هذا فقد قام أستاذنا الراحل بكتابة العديد من المقالات والدراسات للدوريات العلمية نذكر منها:

– مقاله فى العدد الأول لمجلة الصحة النفسية الذى صدر عام ١٩٥٨، وكان المقال بعنوان «الصحة النفسية والصناعة»، وفيه لخص باقتدار موضوعات علم النفس الصناعى الاساسية رابطًا بين بعضها البعض من جانب، وبينها وبين الصحة النفسية من جانب آخر. ولازال هذا المقال حتى الآن يرجع إليه فى كثير من بحوث علم النفس الصناعى والتنظيمى وكتاباته.

– مقاله عن «الاستبار فى الاختيار المهنى» والذى نشرته المجلة الاجتماعية القومية فى عدد يناير ١٩٦٧ من المجلد الرابع، وهى المجلة التى يصدرها المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة. وكان هذا

المقال عبارة عن تقرير عن تجربة قام بها لدراسة ثبات المقابلة وصدقها وكان رحمه الله يفضل لفظ «الاستبار» على لفظ «المقابلة» إذ يرى أن المقابلة تسبر عمق الشخص وأغواره فى البحث النفسى فهى لهذا استبار أصدق من كونها مجرد مقابلة. وإن كان لفظ الاستبار لم يكتب له الشيوع فى الكتابات العربية ربما بسبب كونه غريبًا على السمع.

– مقاله عن معامل الارتباط فى البحوث النفسية والاجتماعية، ونشره بحوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس عام ١٩٦٦/١٩٦٧. وقد تعرض فيه وناقش مدى أهمية معامل الارتباط الاحصائى للبحوث الامبريقية والميدانية فى مجالى علم النفس والاجتماع.

أما فى ميدان إعداد وتقنين الاختبارات النفسية فقد كان لأستاذنا الراحل باع طويل فى ذلك. فبالإضافة إلى إشرافه على إعداد اختبارات بطاريات مصلحة الكفاية الانتاجية الثلاث، والتى سبقت الاشارة اليها، قام باعداد وتقنين اختبارين جمعيين لقياس الذكاء نشرتهما دار النهضة العربية بالقاهرة فى الستينيات. احدهما هو اختبار الذكاء الاعدادى، ويصلح لقياس ذكاء الاطفال من سن عشر سنوات حتى السابعة عشرة. وقد قنن الاختبار على عينة كبيرة الحجم حيث اشتملت على «٣٤١٢ تلميذًا من مدارس القاهرة وعلى ١٨٠٣ تلميذ من مدارس الوجه البحرى وعلى ٥٨٨ من مدارس الوجه القبلى، أى أن العينة الكلية للتقنين تكونت من ٥٨٠٣ تلميذًا». أما الاختبار الثانى فهو اختبار الذكاء العالى والذى قال عنه «ويصلح هذا الاختبار لقياس الذكاء حسب ماعرفناه فى المستويات التعليمية الثانوية ومايعادلها والعليا والجامعية بما فى ذلك الدراسات العلمية أو الأدبية النظرية أو العملية» وكانت عينة تقنين هذا الاختبار كبيرة ايضا، حيث بلغت ٥٨٢٨ فردا من المستويات التعليمية المختلفة (ثانوى– معاهد عليا – جامعات) وهذا يوضح مدى الجهد الذى بذله، رحمه الله، فى إعداد الاختبارين ومدى التزامه للأصول العلمية الواجبة فى تقنين الاختبار النفسى.

هذا، ولم يقتصر جهد أستاذنا الراحل فى مجال القياس النفسى على اعداد وتقنين الاختبارات والبطاريات النفسية بل إنه امتد إلى إعداد وتقنين تلاميذه إن صدق هذا التعبير الذى نستعيره من ميدان القياس النفسى، حيث اهتم فى تدريسه وإرشاده لطلابه باكسابهم المهارات والتقنيات الخاصة باعداد الاختبارات النفسية وتقنينها، فكان يقوم بتدريس وسائل تقنين الاختبار النفسى لطلبته ويدربهم عليها، حتى لو كان ذلك خارجًا عن المنهج التقليدى الذى يعهد إليه بتدريسه. فكثيرا ما شارك أستاذنا الدكتور لويس كامل مليكة تدريس بعض موضوعات معينة فى القياس النفسى كتحليل الوحدات ودراسة الثبات ودراسة الصدق وتحديد المعايير للاختبار النفسى وذلك فى مادة الفروق الفردية التى كان رحمه الله مكلفًا بتدريسها. كما كان تدريسه للاحصاء موجها فى جزء كبير منه نحو اجراءات تقنين الاختبار النفسى والتقنيات الاحصائية المختلفة واللازمة لاعداد الاختبار النفسى الصالح وتقنيه. ولازال بعض طلبته الذين قاموا بتحضير رسائلهم للماجستير أو للدكتوراه يذكرون إصراره على أن تتضمن كل رسالة للماجستير أو للدكتوراه إعداد وتقنين اختبار نفسى جديد على البيئة المصرية واستخدامه فى الدراسة الميدانية التى تتطلبها الرسالة. ولذلك فقد كان له فضل كبير فى نشر الوعى بمنهجية تقنين الاختبار النفسى وإعداده، لدى تلاميذه وطلابه.

وينبغى أن نشير هنا إلى أستاذنا الراحل- كما كان فى طريقة تدريسه- كان أيضا فى كل ماكتب- منشئا أو مترجما- سهل المتابعة واضح العبارة، مرتب الفكر، مقنع الرأى، سديد المنطق.

وعلاوة على هذا وذاك، فقد امتاز- رحمه الله بنزعة واضحة نحو التكوين العلمى لطلبته وتشجيعهم وارشادهم وإفساح المجال أمامهم ورعاية مصالحهم والاهتمام بها، ولم يأل جهدا فى ذلك. فكان تشجيع طلبته على التحصيل مستمرا، وكان مكتبه دائمًا مفتوحاً لكل مستويات الطلبة سواء فى سنوات الليسانس أم الدراسات العليا، واسع الصدر فى مناقشتهم ومتابعتهم وإفهامهم

ماقد عسر عليهم وإرشادهم إلى ماخفى عنهم دونما تبرم يظهر على وجه، أو ينم عنه سلوك. ولقد شارك أستاذنا الدكتور زيور اجتهاده فى فتح المجال أمام طلبته الواعدين بتدعيمهم ومساعدتهم ومد يد العون والتوجيه لهم ماوسعتها الطاقة. ويكفى أن نذكر أن قسم الدراسات العليا بكلية الآداب بجامعة عين شمس قد أحصى سبع عشرة رسالة ماجستير وتسع رسائل دكتوراه استكمل إنجازها وتمت مناقشتها تحت إشرافه- رحمه الله- هذا بخلاف الرسائل التى بدأها ولم تستكمل تحت إشرافه، وبخلاف أيضا الرسائل التى قدم لأصحابها توجيهاته وإرشاداته ومساعداته والتى قدمت للجامعات والكليات المختلفة حيث كان المشرفون عليها يوجهون طلبتهم إليه لأخذ المشورة فيها واستطلاع الرأى إزاء ما استشكل منها. ولاشك أن هؤلاء وأولئك جميعًا مدينون له بذلك، يتذكرونه بالعرفان، ويطلبون من الله له الرضوان.

فليرحم الله أستاذنا الراحل إنسانا وفاضلًا، عالما ومعلمًا، مثلا وقدوة، أبا ورائدا. وليمد الله لنا فى أجل الأحياء من أساتذتنا الرواد، ويجزى الجميع عنا خير الجزاء.